قراءة في مسار الجهاد السياسي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين

(من خلال تجربة رئيسها الإمام ابن باديس في المؤتمر الإسلامي 1936)

د.محمد بن سمينة

جامعة الجزائر

تحاول هذه الدراسة أن تنظر في بعض الصفحات من سجل مسار الجهاد السياسي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، رائدة الحركة الوطنية الحضارية ، وذلك من خلال تجربة الإمام عبد الحميد بن باديس (1940/1889) مؤسس هذه الحركة ، في المؤتمر الإسلامي المنعقد 1936 في الجزائر العاصمة ، ونلحظ أن إسهامات الإمام في العمل السيلسي قد شملت هذا الميدان بجانبيه النظري والعملي ، ويمكن أن يتمركز النقاش لإجلاء ذلك في هذه المحاور :

1- في الحقل النظري :

أولا : المدخل

ثانيا : البعد السياسي في المشروع الباديسي

ثالثا: مفهوم ومنهج

رابعا : اختيار وتعليل

2- في الحقل العملي :

خامسا: معالم من مسار الجهاد السياسي للإمام ابن باديس

سادسا: تجربة الإمام ابن باديس في المؤتمر الإسلامي

سابعا: نضج وتطور

ثامنا : الخاتمة

1- في الحقل النظري :

أولا: المدخل: كانت الجزائر في العصر الحديث من أسبق شقيقاتها في العالم العربي الإسلامي ابتلاء بالاحتلال الأوروبي ، 1830 وذلك على أيدي الغزاة الفرنسيين دعاة (الحرية والمساواة والأخوة) هؤلاء للذين خرجوا من ديارهم متطوعين من أجل نصرة الحقوق الإنسانية ونشر الحضارة والمدنية بين المستضعفين - كما يزعمون - وذلك عن طريق احتلال بلاد هؤلاء المستضعفين ونهب خيرات أراضيهم والقضاء على مقومات شخصيتهم!

وقد كانت الجزائر من بين هذه البلدان التي أخذت بحظ وافر من هذه (الجهود الإنسانية المشهودة والمحمودة !) على أيدي الغزاة الفرنسيين الذين استهدفوا من خلال هذه الهجمة الصليبية التغريبية القضاء على كيان الشعب الجزائري : أرضا وعمرانا ، مقومات وقيما ، ثقافة وحضارة .

إلا أن الشعب الجزائري لم يرضخ لهذه الهجمة وهذا للعدوان ، وإنما قاما يتحداهما بإيمان وشجاعة ، وكان ذلك على امتدادا جبهات عديدة :

1 – المقاومة المسلحة من ثورة الأمير عبد القادر 1830 إلى كبرى الثورات الجزائرية ، ثورة نوفمبر 1954 .

2– الصراع الفكري من مبادرات الإصلاح الديني على يدي الشيخ صالح بن مهنا (1854 / 1910) في أواخر القرن التاسع عشر . ومن عاصره وجاء من بعده من شيوخ مطلع للقرن العشرين ،إلى الحركة الإصلاحية الحضارية للإمام ابن باديس في العشرينيات من القرن الماضي .

3 – الجهاد السياسي من جهود الأمير خالد (1875 / 1936) في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، إلى جهاد جبهة التحرير الوطني ابتداء من نوفمبر 1954 ويمكن أن يميز الباحث في هذه المقاومة السياسية تيارات ثلاثة :

1 – التيار الوطني الحضاري (الانطلاق من الاستقلال الشخصي كمقدمة للنضال من أجل الاستقلال السياسي) الحركة الإصلاحية الحضارية في العشرينيات من القرن الماضي واستمرارية نشاطها في مشروع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ابتداء من عام 1931.

2 – التيار الوطني السياسي (الاعتماد على النضال السياسي من أجل الاستقلال الوطني) حزب النجم 1926 ثم حزب الشعب الجزائري 1937 ثم حركة انتصار الحريات الديموقراطية في الأربعينات .

3 – التيار الوطني الاندماجي (المطالبة بالمساواة) جماعة النخبة مثل بن جلول وكان ابن باديس، وهو يقود الحركة الوطنية الحضارية، يزاوج في مشروعه النهضوي بين الدين والعلم ، بين التربية والأخلاق ، بين الاجتماع والسياسة ، وكان البعد السياسي بذلك معلما بارزا في هذا المشروع، وذلك على أكثر من صعيد ، وفي غيرها جبهة من جبهات الصراع الدائر بين أهل الحق الذائدين عن حقهم ، وبين أهل الباطل المعتدين على غيرهم ، فماذا عن ذلك

ثانيا : البعد السياسي في المشروع الباديسي : يحسن قبل الاسترسال في معالجة هذا الجانب من نشاطات الإمام ابن باديس أن نتساءل عن الصلة بين ما نهض به من جهاد على امتداد وجوه الحياة العامة ، وبين العمل السياسي ؟ فهل يمكن اعتبار الإمام بذلك أحد رجال السياسة ؟ وكيف كانت استراتيجيته في معالجة قضاياها ؟

يمكن للقول أن السياسة كانت حاضرة في مشروع ابن باديس منذ دخوله معترك الحياة الاجتماعية في مطلع شبابه في بداية العشرينيات ، بيد أنه لم يكن متفرغا لها بكليته ولم يركز عليها كامل جهده ولم تكن هاجسه الأول ، لا لأنه لم يكن بجبلته رجل سياسة خبيرا بدروبها ودهاليزها وإنما كان أحد العلماء ، و هؤلاء كما يرى أحد الدارسين [1] أبعد الناس عن السياسة ، و لا لأنه كان لا يقدر خطرها في حياة الناس ، لم يكن هذا ولا ذاك أحد الدوافع التي دفعته إلى إتخاذ هذا الموقف ،و إنما سلك ذلك المسلك عن تبصرة وحكمة حفاظا على حركته و إدراكا منه – فيما أحسب – لأنجع السبل التي تمكنه من الوصول إلى ما يرمي إليه من مقاصد .

فقد كان سليل بيت ملك و سلطان ، ففي القديم كان أحداده ملوكا وسلسة لعل من أشهرهم (المعز بن باديس) مؤسس الدولة الصنهاجية (ت : 373/ 984) ، وفي العصر الحديث كان أبوه عضوا في المجالس المختلفة [2] ، كما كان عمه (أحميدة ابن باديس) كذلك [3] ، و يستبعد أن يتربى رجل في هذا المحيط و يكون حظ أصوله من السياسة ما رأينا و لا في عروقه شيء من الميراث السياسي قل أو كثر ، كما كان من نحو آخر بعض خصال الإنسان للزعيم في قومه بما توفرت لشخصيته من قيم الإخلاص و الحكمة و الشجاعة و الحزم ،فإن للتاريخ يؤكد أن الاستدمار بالرغم من مختلف ما سلط على حركته من أساليب الإرهاب وصنوف الاضطهاد ، فإنه لم يستطع أن يلين قناته أو يثنيه عن مواصلة سيره فيما عزم على النهوض به ، وقد زادت الفكرة الإسلامية هذا الميراث السياسي حكمة و

رجاحة ،كما زادته نضجا وترشيدا أحداث الصراع الدائر بين أمته وبين المحتلين ، و وجوده في موقع الصدارة منه يذود عن الأمة قيما و مقومات وحقوقا، ولكنه لم يكن يولي العمل السياسي بمفهومه الحزبي الضيق عناية كبيرة [4] لاعتقاده أن ما تعانيه الأمة من علل وأدواء لا تقوى السياسة وحدها على معالجته ، ولم تكن بعبارة أدق من الوصفات الدقيقة له ، وأن المنهج ينهض بالأمة روحيا وعقليا وسلوكيا أجدى عليها من غيره وأن حاجتها إلى ذلك لمداواة جراحاتها أكثر من حاجاتها إلى سواه ، وإن أية خطوة يخطوها الكاتب في عملية إعادة بنائها يحسن أن يسبقها التركيز على تصحيح الاعتقاد وتحرير العقل وتنوير الفكر وتقويم السلوك ،كما كان الإمام قد وعى تجربة الأمير خالد وتأثر بما انتهت إليه فرغب لذلك بعدم التظاهر بالاشتغال بالسياسة وذهب — تقية — إلى حد إعلانه عن اجتناب حركته الدينية التهذيبية عن العمل بالسياسة [5] وهو بإلحاحه على هذا الجانب لا يعني أن الإسلام ليس من اهتماماته ذلك ، أو أن السياسة ليست من الشريعة الإسلامية في شيء ،كما ذهب إلى ذلك أو إلى شيء منه الشيخ (علي عبد الرزاق) في كتابه (الإسلام وأصول الحكم) وإنما كان قد فعل ذلك حتى يعمل على إبعاد السلطة عن شؤون الإسلام فيضمن بذلك المحافظة على أبرز عنصر من عناصر الجزائرية من نحو ،كما يعكس من نحو آخر حرصه على حماية حركته وهي في عهدها ، مما قد تتعرض إليه من جراء ذلك من مخاطر.

وما كان ذلك في النهاية إلا أسلوبا بارعا في التعامل مع المحتلين من زعيم مجرب حكيم [6] ، ولذلك كان يشير إلى أنه لا يريد أن يدخل المجال

السياسي ، باسم الجمعية كما كان يعمد إلى توقيع بعض الأعمال التي يظهر شيء من المواجهة و الشدة باسمه الخاص حفاظا على الحركة (7) .

و قد أدت به هذه العوامل للاعتقاد بأن المبادرة بالعمل السياسي قبل أن ينضج عود الحركة وتنجح في تبليغ دعوتها إلى ضمير الشعب فيستيقظ من سباته ويشرع في تحسين واقعه ويلمس طريقه نحو العلم و العمل و التحرر من الجمود و التقليد ، إن المبادرة بالسياسة دون تحقيق هذه الخطوات قد يبوء بالحركة إلى الإجهاض ، ذلك لأن العمل السياسي و الأمة تغط في سبات عميق ، و تسبح في بحر لجي من الأوهام والبدع لا يؤتي ثماره ولا تؤمن عواقبه إذا لم يسبقه ويواكبه جهد بارز في حقل العمل الدعوي الفكري و إن هذه القراءة الداعية للواقع الوطني والملابسات التي تكتنف جوانب الصراع فيه وتتحكم في سير الأحداث به يومئذ ، إن هذه القراءة جعلت ابن باديس لا يتفرغ للسياسة بكليته ولم يعتزلها نهائيا في نشاطاته ومواقفه المختلفة وإنما كان يزاوج بينها وبين منهجه الإصلاحي مراعيا في ذلك الظروف والملابسات والأحوال عن مفهوم ابن باديس للسياسة ؟ فهل كان يفهمها بمنطق الماديين النفعيين أن الغاية تبرر الوسيلة ؟ أم كان يفهمها على نحو مغاير ؟ و هل كانت عنده كما هي عند بعض السياسيين المحترفين ، ركضا وراء المصالح الخاصة ومصدرا للارتزاق أم كان يفهمها سعيا وجهادا لخدمة المصلحة العليا للأمة ، في نطاق ما تسمح به الأخلاق الإسلامية و المبادئ الإنسانية.

ثالثا : مفهوم ومنهج : لقد كان يفهم السياسة كما تنص عليها مصادر الشريعة الإسلامية مستمدة من القاعدة الأصولية: الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر { كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر

وتؤمنون بالله }[8] و في الحديث الشريف قوله (صلى الله عليه وسلم) : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » رواه أحمد و مسلم [9]و يقال في اللغة :« سست الرعية سياسة : أمرتها ونهيتها » [10] .

ويرى لبن خلدون أن « السياسة المدنية هي تدبير المنزل أو المدينة لما يجب بمقتضى الأخلاق والحكمة ليحمل الجمهور على منهاج يكون فيه حفظ النوع وبناؤه » [11] .

إن ابن باديس يستمد مفهومه للسياسة من هذه الأصول ، فهو لا يفهمها في حدود تلك الأطر الحزبية الضيقة التي يقتصر فيها أصحابها على القشور دون اللباب ، و يتهالكون من دونها على الكرسي و الألقاب ، وإنما ينظر إليها من معناها الحقيقي بصفتها خدمة الأمة بصدق و إخلاص في جميع مناحي حياتها ، وتدبير شؤونها الدينية و الدنيوية : إحياءا لمقوماتها ، و تمسكا بقيمها ، وذودا عن حقوقها ونشرا للعلم والفضائل بين أبنائها ، وحثا إياهم على الإقبال على الحياة و الأخذ بأسباب العزة و التقدم فيها .

وهذا ما يلمع إليه أو إلى بعضه الكاتب في معرض حديثه عن مبدأ حركته في العمل السياسي «مبدؤنا في الإصلاح السياسي هو المحافظة التامة على جميع مقوماتنا ومميزاتنا كأمة لها مقوماتها ومميزاتها والمطالبة بجميع حقوقها السياسية والاجتماعية لجميع طبقاتنا دون الرضى بأي تنقيص أو أي تمييز » [12].

وإن هذا الذي يقرره لبن باديس عن مفهومه للعمل السياسي يؤكده الإبراهيمي بأوضح بيان فالسياسة عنده « إحياء المقومات التي ماتت أو ضعفت تراخت من دين أو لغة وجنس و أخلاق وتاريخ و تقاليد و تصحيح قواعدها في

النفوس ، ثم المطالبة بالحقوق الضائعة في منطق و إيمان،ثم الإصرار على المطالبة في قوة وشدة ،ثم التصلب في الإصرار في استماتة وتضحية » [13].

ويمكن أن يتبين المرء من خلال هذه المواقف الثابتة أن جوهر السياسة عند المصلحين واحد في جميع المراحل التاريخية ، وإنما الذي كان يتغير بين زمن وآخر إنما هو العرض أي اللبوس الذي كانت تلبسه هذه السياسة في فترة – تبعا للظروف والمستجدات – ولا تلبسه في أخرى .

فهذه إلماعة عن مفهوم الإمام للسياسة ، فماذا بعد عن منهجه الذي سلكه في عمله السياسي ليصل به إلى ما رسم من مرام وغايات ؟

كانت الجزائر في الفترة التي عاصرها ابن باديس و تفاعل مع أحداثها تعيش في ظروف قاسية استمرارا لما كانت عليها منذ ابتلائها بنكبة الاحتلال الفرنسي : حقد حكام وجور إدارة وتعسف سلطة وتولطؤ الجميع على النيل من الشعب الجزائري : سيادة وشخصية وحضارة فانفعل لبن باديس وهو خطواته الأولى على عتبة الجهاد الأكبر بهذه الحال ، فوطن نفسه على القيام بعمل يكون من شأنه التصدي لإحباط هذه الهجمة الصليبية الشرسة ، والعمل على إفشال ما تستهدفه من مكائد ضد الدين وللوطن والأمة . ولاشك أن يكون ابن باديس وهو يقلب النظر في جوانب هذه الوضعية ، بحثا عن أسلم السبل لعلاجها ، قد تواردت على ذهنه بعض الأسئلة حول الأسباب التي أدت بالأمة إلى هذه النهاية المخزية : فهل كانت هذه الإتنكلسة من آثار نكبة الاحتلال الأجنبي أم كانت نتيجة عوامل أخرى ، سبقت ظاهرة الاحتلال ومهدت لها ، ولم تكن هذه الظاهرة – وإن زادت الأحوال ضغثا على إبالة –

إلا مسببة عنها ، و ليست سببا فيها ؟ يمكن القول أن ما انتهت إليه الأمة من ذل و استخذاء وتخلف ، إنما نجم عما أصابها في قواها الفاعلة : روحها وعقلها و من احتلال واحتلال في إطار التدهور العام الذي أصاب الحضارة العربية الإسلامية في عصر الضعف ، وإذا كان الأمر كذلك ، فما هي أنجع السبل لإخراج الأمة من هذه الوضعية ؟

و أي الدروب يجب أن يسلك من رام إبراءها من هذه العلل ؟ وهل باب الجهاد للدعوي الفكري ينتهج أم عباب السياسة يبحر ، أم أنه يزاوج بين هذا وذاك مبتدئا بالأهم فالمهم مراعيا في ترتيب أولويات العمل ، ملابسات الواقع ومجريات الأحداث من حوله ، فيرمي بذلك رميته في عمل جامع شامل يكون من شأنه إبراء الأمة من أدوائها ؟

وإن الذي يستقرئ حيثيات الموضوع و ينعم النظر في معطيات الواقع يتبين أن أنجع المناهج في إنقاذ الأمة مما تلقى من عنت وإرهاق وإخراجها مما تتخبط فيه من احتلال واستغلال ، إنما هو ذلك المنهج الذي يتمثل في البناء الحضاري للذي لايقتصر العمل فيه على نشاط أحادي ينحصر في معالجة بعض الأدواء دون بعضها الآخر وإنما يقوم على ضبط أسس العمل في منهجية محكمة تهدف إلى النهوض الشامل ببنية الأمة في جميع مقوماتها ومظاهر حياتها ، فكلنت بذلك الخطة الدينية التي تقوم على البناء الروحي والعقلي والنفسي من أبرز ما أقام عليه ابن باديس مشروعه في عملية النهضة ، وكان هذا التوجه صادرا عن قناعة وروية ، فماذا عن ذلك ؟

رابعا : اختيار وتعليل : ويمكن للباحث أن يعلل لهذا الإختيار بما يقوم عليه للدين الإسلامي من وضوح اعتقاد وكرم أخلاق وسماحة شريعة ، مما

معين السيلسة الرشيدة للذي لاينضب ومنهلها للعذب للذي لايغور ، وهو بذلك أجدى و أنجع من غيره في معالجة مشكلات الإنسان فردا وجماعة ، والسير به نحو أعلى المراتب و أكملها بمنهج لايدنو إلى مرقاه سواه ، كان المسلم غنيا بتعاليم دينه عن سائر المناهج الوضعية في تسيير جميع وجوه الحياة ولا تعوزه الحلحة إلى أي منها في أي شيء من ذلك ، ويمكن أن من هذا أن العمل السياسي في المنظور الإسلامي إذا لم يستنر صاحبه فيما وفيما يعمل بالعلم للديني ضل في سيره وخاب في مسعاه ، ولذلك فقد الشيخ ما اختاره عن وعي وتبصر ولو كان يرى أن المنهج السيلسي يفيده مشروعه أكثر من غيره لكان قد استهل به جهاده ، وما كان يثنيه عن ذلك خوف أو يقعده عنه ضعف و لكنه ترك العمل السيلسي في صورته الحزبية الضيقة لأصحابه معتقدا بعدم جدواه و بخطورته بآن على حركته و هي في بدايتها و ليمهد من نحو آخر الطريق أمام جماعته نحو المستقبل من خلال الأرضية الروحية و الفكرية والنفسية لأفراد الأمة حتى يتسنى للشعب من أن يغرس في حقولها بذور نضاله السيلسي و أسس ثورته الجهادية ، و يمضي ذلك بما يرعاه و ينميه إلى أن يخرج للزرع شطأه و يستوي على سوقه آوان حصاده ثمرا جنيا ، عزة و أصالة ، حرية و استقلالا (14)

وللسائل أن يسأل : لماذا لم يتحرك ابن باديس في عملية النهضة على أكثر من صعيد ويجمع فيها بين أكثر من أسلوب ؟

يمكن القول أن فكرة المزاوجة بين أكثر من منهج كانت من أبرز ما يميز خصائص العمل الباديسي في النظر إلى الأمور والتعامل مع الأحداث والموقف .

فقد رأينا أنه زاوج في بناء أسس مشروعه بين للروح والمادة بين العقل والقلب التربية والعلم ، بين الدين والسياسة . ومن هذا المنطلق جمع الكاتب في نشاطاته ما بين الخطة الدينية والخطة السياسية في مرحلة مبكرة من حيلته ، وذلك من خلال جمعه في آن بين عكوفه على مشروعه للدعوي ،وبين متابعلته وتعليقلته على الحكام وتصريحاتهم وكاد الإمام أن يعلن عن لشتغاله وصحبه بالسيلسة في تعليقه عن اتهامات المحتلين لهم بذلك « ثم ما هذا العيب الذي يعاب به العلماء المسلمون إذا شاركوا في السياسة ؟ فهل خلت المجالس النيابية الكبرى والصغرى رجال الديانات الأخرى » (15)

ولم يثبت عن الكلتب – على أية حال – أنه نفى عن حركته الاشتغال بالسيلسة كأسلوب للتوجيه والتعبئة وضبط المصالح ، وإنما كان يحاول أن يبعد عنها ذلك – بوصفها حركة دعوية تهذيبية – تهمة الاحتراف بالسياسة بمفهومها الحزبي المحدود« و الجمعية لاتنتمي لحزب ولا تعادي حزبا إلا من حارب الإسلام وللعروبة (...) والجمعية ما لتدخلت في سياسة الكراسي و النيابات و المكاتب و الممرات ... و إنما وقفت الجمعية في مؤتمر الأمة تضع مطالب الدين و اللغة و شروط المحافظة على الجنسية والشخصية ومثلت ذلك كله بلسانها وهيئتها أصدق تمثيل » (16)

و بماذا يمكن أن يوصف به عمل من يبعث في الأمة روح النهضة ويسهر على توعيتها بواقعها ويحثها على النهوض به ويرسم الطريق أمامها لبلوغ غايلتها في الحياة الحرة الكريمة ؟ وفي أي إطار يمكن أن يدرج عمله هذا ؟ أوليس ذلك عينه جوهر العمل السيلسي الرشيد للذي يهز مضاجع المحتليين ويهدد وينذرهم بقرب رحيلهم ؟ وإذا لم يكن ذلك العمل كذلك ، فلم يفزع

ـمن الحركة الباديسية ويسارعون ـإلى ـللبطش برجالاتها وملاحقتهم وتضييق الخناق عليهم وتغريمهم وسجنهم ! [17]

ونخلص بعد هذا الذي تقدم عن التوجه النظري للإمام ابن باديس في الميدان السياسي إلى التساؤل عن جهوده العملية في هذا الحقل ؟

2- في الميدان العملي :

خامسا : معالم من المسار السياسي العملي للإمام ابن باديس : يمكن للقول أن ـمن ـأبرز ـمن خطا الخطوات الأولى ـمن الزعماء ـللوطنيين الأحرار على درب الجهاد السيلسي ـفي أعقاب الحرب العالمية الأولى ، إنما ـهو الأمير خالد(1875/1936) ـالذي ظهر على رأس الواجهة الوطنية ـفي أعقاب الحرب العالمية الأولى ، بعد صدور إصلاحات (4 فيفري 1919) [18] ـالتي تظاهر أصحابها نظريا ببعض الإصلاحات . و يمكن اعتبار جهاد الأمير خالد بهذه الانطلاقة للنواة الأولى للحركة الوطنية الحديثة ـفي الجزائر [19] وكان المحتل كعادته يخشى ـمن الموقف الحازمة والأعمال الحادة ،ـفرأى ـفي حركة الأمير خالد ـما يهدد وجوده ، فسارع ـإلى وأدها ـفي المهد ، ونفي صاحبها خارج ـللوطن فمات –رحمه الله – ـفي منفاه ـببلاد الشام الشقيقة 1936 . وقد تراجع المحتل بعد ذلك عن إصلاحات 1919 و لأعاد أحكام (الأنديجينا) و إجراءات التضييق على الشعب الجزائري ،كما كانت عليه أو أشد [20] ، و إذا كان المحتل قد وضع حدا لهذه التجربة الوطنية الرائدة في هذه الفترة ، فإن جهاد الشعب الجزائري لم يتوقف بتوقفها ، وإنما تواصل في أشكال عديدة .

وكان ابن باديس من بين أبرز من أخذ مكانه من الزعماء الوطنيين في هذا التواصل على نهج الأمير خالد متصديا للمخطط التغريبي ، منافحا عن الحقوق الوطنية ، آخذا بأيدي الشعب إلى أسلم المناهج ، وأنجح السبل للمطالبة بها ، والذود عنها ، تامة كاملة .

فمتى كان منطلق الشيخ في جهاده السياسي ؟ و من أين بدأه ؟ وما هي أهم المرامي التي كان يستهدفها من ذلك؟

لقد استهل ابن باديس جهاده السيلسي على نهج الأمير خالد في أواسط العشرينيات من القرن الماضي ، و تمركز نضاله في هذه المرحلة على توعية أفراد الأمة بواقعهم وحثهم على النهوض به، والأخذ بأيديهم على طريق المنافحة عن شخصيتهم، وللذود عن حقوقهم ، والتصدي لإجراءات سلطة الاحتلال الظاهرة منها والخفية ، اليمينية منها واليسارية ، وقد كانت هذه السلطة بجميع ألوانها تتنكر لحقوق الشعب الجزائري وتقف حائلا بينه وبين بلوغه أهدافه في الحياة الحرة الكريمة .

وقد تزامنت انطلاقة ابن باديس في هذا الميدان مع استلام الجبهة الشعبية – ممثلة في الأحزاب اليسارية- الحكم في فرنسا ، ومحي عموريس فيوليت حاكما عاما على الجزائر 1925[21] . وكانت هذه الجبهة قد تظاهرت بإجراء بعض الإصلاحات في الجزائر ،كان من بينها التلويح بمشروع فيوليت ، فماذا عن ذلك ؟ وماذا عن موقف ابن باديس من الجبهة الشعبية ومشروع فيوليت ؟لقد ظلت السيلسة الفرنسية في الجزائر تسير منذ الاحتلال تحت اليمين في اتجاه اضطهاد الشعب الجزائري وحرمانه من جميع حقوقه ، ولما

استلمت (الجبهة الشعبية) الحكم في فرنسا وهي تتألف من أحزاب اليسار هؤلاء الذين يصفون أنفسهم بأنهم دعاة عدالة و مساواة وحرية و أنصار سلام ود يموقراطية و إنسانية ، توقع بعض الجزائريين أن السياسة الفرنسية سوف تعرف على أيدي هؤلاء بعض التغيير مما قد يخفف على الشعب بعض ما يعانيه من صنوف الحيف والإجحاف تحت حكام اليمين [22] .

وكان ابن باديس من بين من رأى أن من الحكمة و سداد النظر التريث في إصدار الحكم على هؤلاء حتى تتكشف حقيقة برنامجهم من خلال ما يقدمون على القيام به من خطوات في الميدان السياسي [23] .

و قد كانت الساحة السياسية في الجزائر في هذه الأثناء مع بداية الثلاثينيات قد شهدت عدة تحركات قامت بها عدة أطراف سياسية .

فكان من بين ما بادر به اليسار الفرنسي بزعامة الجبهة الشعبية تعيين السيد (موريس فيولييت) واليا عاما على الجزائر سنة 1925 فأبدى هذا الحاكم استعدادا ملحوظا للنظر في المسألة الأهلية خدمة لصالح بلاده ، فكان نموذجا مميزا عمن على رأس الولاية العامة من الحكام الفرنسيين فقد كان معظم هؤلاء غلاظا شدادا متحاملين ، حريصين على أن يخدموا مصالحهم الشخصية على حساب هضم حقوق المستضعفين ، والضغط عليهم وامتصاص دمائهم فجاء (فيوليت) و رأى وهو رجل فرنسي قبل كل شيء [24] ، أن من مصلحة فرنسا أن يقرب إليها الجزائريين وهو « لا يحب بما يعرقلهم عن الاندماج التدريجي » [25] فأراد أن بلاده بما يحقق لها هذه الغاية ، فنهج في سياسته نهجا مميزا خالف فيه من الحكام بما أبدى فيه من بعض المرونة في معالجة المسألة الأهلية « فكان من

سداد للرأي أن يقلبل الجزائريون هذا التوجه من هذا للوالي بشيء من و الترقب إلى أن يصدر من هذا الحاكم ما يستلزم إعادة النظر في سياسته [26] ، فحاول هذا الحاكم أن يصوغ برنامجه السيلسي في مشروع عرف بلسمه (مشروع فيولييت) شرح فيه للرأي العام الخطوط العريضة لسيلسته الاجتماعية والاقتصادية التي ينوي الوصول إليها في الجزائر . فما هي أبعاد هذا المشروع ؟ وما صداه نفوس الجزائريين و المستوطنين الفرنسيين ؟ و ما موقف ابن باديس منه ؟

إن أهم ما ينص عليه هذا المشروع هو منح الجزلئريين حق التمثيل والانتخاب و إصلاح التعليم و إلغاء المحاكم الخاصة [27] وكان المستوطنون أصحاب السلطة الفاعلة قد عارضوه معارضة « بذية ظالمة منكرة » [28] ، لأنهم يرفضون منح الأهالي أبسط حقوقهم (كالتمثيل والانتخاب) و يترفعون عن الاجتماع بهم في جلسة عادية ، بله أن تجمع بينهم في جلسة رسمية ، طاولة واحدة هي طاولة البرلمان الفرنسي . أما أعضاء النخبة من للنواب فقد تلقوا المشروع بالقبول لأنه يلوح بما ينادي به بعضهم من مساواة و بملىروج له بعضهم الآخر من اندماج ، و على كل فقد انقسموا إلى قسمين :

أما الأمة فقد قابلته أول الأمر بالرفض و المقاومة ،لما فيه من عدم التسوية في الحقوق بين الجزلئريين و الفرنسيين ، ولما «فيه من تهيئة الطبقة المثقفة مع السكوت التام عن الدين و اللغة » [29] ثم عدل المشروع «فصرح فيه بلزوم المحافظة على الشخصية الإسلامية» [30] ، و التلويح بدفع بعض الغبن عن الشعب الجزائري و المساواة بينه و بين غيره في الحقوق . فقبلته حينئذ الأغلبية في الأمة «بالشرط المذكور ، و باعتباره أقل المطلب » [31] وذلك «كخطوة أولى فقط يجب بعد تنفيذها أن يقع الإسراع في بقية الخطوات إلى تحقيق التساوي

للتام للعام » [32] ، لما الأقلية فقد لبت قبوله تملما لأنها تخشى بعض التي لا تدري متى تكون « ونحن نحترم رأي هذه الأقلية و نؤمل بقاءها على رأيها »

و قد قبلت الأمة هذا المشروع للاستناد عليه في كفاحها من أجل المطالبة بالحقوق الوطنية التامة و المحافظة على الشخصية وحمايتها مما يهددها من مكائد التجنيس و الاندماج وما «حاز القبول للذي حازه إلا لما فيه من التصريح بالمحافظة على الحالة الشخصية ، مع أن ما فيه ، إنما هو نزر قليل جدا من الحقوق المطلوبة » [34] وذلك لأنه لا يحقق إلا مطلبا واحدا (حق الانتخاب) من المطالب التي ستتقدم بها الأمة مستقبلا إلى المؤتمر الإسلامي سنة 1936 .

ويزعم بعض الدارسين أن لابن باديس كان موزع للرأي متعدد المواقف من سياسة الجبهة الشعبية ومن هذا المشروع بوجه خاص [35] . أن الواقع يفند هذه المزاعم ، ويؤكد أن موقف لابن باديس من الجبهة و مشروع (فيوليت) كان ثابتا ، و إن تلون ببعض ما تمليه بعض الظروف منذ الوهلة الأولى وفي جميع المراحل ، ولم يتأثر فيه كعهده في جميع مواقفه لا باليمين ولا باليسار، وإنما للذي حركه وكان يحركه دائما إنما هو غلية هي المصلحة العليا للأمة الجزائرية ، غيرة على شخصيتها ، و ذودا على حقوقها وجهادا من أجل ترقيتها ، فهذه المصلحة هي التي تملي عليه أن هذا الموقف أو ذاك وهي التي تدفعه ليقبل ما يقبل ويرفض ما يرفض ، و لذلك فقد قابل هذا المشروع أول الأمر بالرفض ، لما فيه من عدم التسوية في والسكوت عن الشخصية والتمهيد لما يهددها من أخطار التغريب والاندماج ،

عدل المشروع وصرح فيه بالشخصية [36] فقبله حينئذ كمحاولة أولى لفك الحصار المضروب على الجزائر من طرف غلاة الاستعمار للحيلولة بينها وبين إيصال صوتها مطالبة بحقوقها إلى السلطات العليا بباريس والتأكيد على تمسكها بشخصيتها والوقوف في وجه تلك المحاولات الرامية إلى النيل منها . و يتقدم المشروع سنة 1935 [37] أمام مداولات البرلمان الفرنسي وقد أصبح يسمى (مشروع بلوم ـ فيوليت) [38] ويقابل بالرفض ولعل مرد ذلك إلى الأسباب التالية :

1 ـ المستوطنون الفرنسيون يعارضون المشروع معارضة شديدة ويرفضون منح الأهالي أبسط حقوقهم في التمثيل و الانتخاب .

2ـ البرلمان الفرنسي يرفض الموافقة على منح الجزائريين بعض حقوقهم مع محافظتهم على شخصيتهم [39]

3 ـ الجزائريون يصرون على المحافظة على شخصيتهم ولا يبغون بها بديلا . و تصادمت هذه النزعات وتلاقت جميعها على إسقاط المشروع و دفنه و إبعاده عن الساحة السياسية الوطنية نهائيا ، و يبدأ الجزائريون من بعد ذلك أولى خطواتهم في مسيرتهم النضالية على طريق جديد .

وخرج الإمام من تجربته مع السلطة يمينا ويسارا ، من أنه لا هذه و لا تلك مستعدة أن تتراجع عن غيها وترفع مظالمها عن الشعب وتمنحه حقوقه ، وذلك لأن الاستدمار ملة واحدة، وأن لا سبيل ينقذ الأمة من آثاره ويحقق لها رغباتها في التحرر والانعتاق ، إلا اعتمادها على الله ، ثم تقبل على نفسها فتغيرما بها ، فترمي بأساليب عملها البالية ، وتدخل مرحلة جديدة من جهادها .

و من هذه القناعة دعا ابن باديس إلى انعقاد المؤتمر الإسلامي سنة 1936 ، وخاض تجربته متصديا لما يحاك ضد الأمة من دسائس ، منافحا عن الشخصية ، مدافعا عن الحقوق فماذا عن هذا المؤتمر ؟ وماذا عن موقف جمعية العلماء منه ؟ وكيف تتبدى صورة ذلك من خلال آثار الإمام ؟

سادسا : تجربة الإمام ابن باديس في المؤتمر الإسلامي 1936 :

لقد انبثقت، فكرة المؤتمر الإسلامي سنة 1936 من مبدأ المحافظة على الذاتية والذود عن الحقوق الوطنية بغرض الوقوف في وجه مختلف المناورات التي ما فتئ أوارها يشتعل طوال فترة الاحتلال ، مستهدفة النيل من مقومات الشخصية والحقوق الوطنية ، فما هي الظروف والملابسات السياسية التي كانت تخيم على الساحة الوطنية في هذه المرحلة ؟ ومن كان وراء هذه الدعوة إلى المؤتمر ؟ وما هي أبرز العوامل التي دفعت إليه ؟ ومن هم المشاركون فيه ؟ وما هي المطالب والنتائج التي أسفرت عنها أشغاله ؟

1- الملابسات والدوافع : كانت الساحة السياسية في الجزائر مع بداية الثلاثينات قد عرفت بعض المستجدات وشهدت تحرك عدة أطراف لأغراض مختلفة ، فكانت السلطة الحاكمة بقيادة الجبهة الشعبية التي استلمت الحكم في فرنسا في هذه الأثناء تلوح ببعض الإصلاحات ، وكان المستوطنون الذين أبدوا معارضة شديدة لهذه الإصلاحات يرفضون مجرد التفكير في منح الشعب الجزائري أبسط الحقوق على أيديهم ، أما أعضاء النخبة الجزائرية فكانوا في هذه الأثناء يتحركون في اتجاه المطالبة بالمساواة في بعض الحقوق (التمثيل والانتخاب) منخدعين بما يلوح في الأفق السياسي من مظاهر كاذبة تختفي من ورائها أفكار التغريب والتفرنس .

أما أعضاء حزب النجم فقد تحفظوا على سياسة الجبهة الشعبية و لأبدوا مخاوفهم من نتائجها على مستقبل للوطن [40] . لما أعضاء جمعية العلماء الجزائريين فقد رأوا أن يقفوا موقفا وسطا من هذا الموضوع ، فلم يجاروا السلطة في مزاعمها ولم يرفضوا التعامل معها في الوقت ذاته، و رأوا أن في كلا الموقفين خطرا على المصلحة الوطنية ، ذلك أن المحاراة غير الحكيمة قد تمنح هذه السلطة بعض المصداقية التي ظلت تفتقر إليها طوال فترة الاحتلال ، كما أن التزام الغياب عن الساحة السياسية في هذا الوقت يترك المجال فارغا أمام المحتلين فيصلون إلى أهدافهم من خلال ما يبثونه ضد الوطن حقوقا و مقومات . و هذا ما يفسر القرار الحكيم الذي اتخذه ابن باديس بدعوته إلى انعقاد المؤتمر [41] لجمع كلمة الأمة و توحيد صفوفها حول المسألة الوطنية ، و التصدي لما يخططه المحتلون ، و يقوم به بعض الجزائريين تنفيذا لمخططات السلطة من ترويج لسياسة التغريب ، ونشر أفكار الاندماج ،و التساهل في شأن الذاتية ، وقد التقى على طاولة هذا المؤتمر : أعضاء النخبة ، و العلماء ،و الشيوعيون و قد قطع العلماء على أن تكون قاعدة العمل والنقاش في جلساته متركزة على مبدأ لزوم المحافظة على الشخصية، وقد اعترف بعض النواب في البرلمان الفرنسي بأن هذا الشرط من اقتراح العلماء،بل ذهب بعضهم إلى أبعد فجعل ذلك من تعصب ابن باديس [42] مما يوضح أن مشاركة الحركة الباديسية في هذا المؤتمر ، إنما كان غير مرغوب فيها من طرف المحتلين ،وذلك لإدراكهم أن ذلك ، إنما كان من أجل حماية الذاتية والتصدي لما يحاك ضدها من مكائد[43] ظلت السلطة منذ الأيام الأولى للاحتلال تحاول رغبا و رهبا من مقومات الهوية الوطنية و ظهر مع الأيام تيار يتألف معظم أصحابه من

خريجي المدرسة الفرنسية هؤلاء للذين ضعف في نفوسهم الشعور بعز إلى الملة الإسلامية و الأروبة العربية [44] فتبنى بعضهم سيلسة الاحتلال و يدعو إلى التخلي عن الأحوال الشخصية وينادي بالاندماج ، و تضاعف نشاط أصحاب هذا التيار لما يدعون إليه مع مجيء الجبهة الشعبية إلى الحكم فرنسا و تلويحها بإجراء بعض الإصلاحات في الجزائر ، فانخدع بعضهم بسيلستها وظنوا أنهم واصلون إلى بعض مطالبهم (الانتخاب والتمثيل) ولو بهم ذلك إلى التضحية بالهوية [45] ، وكان الاحتلال قد حاول أن ينفرد ويجرهم وحدهم إلى الحوار معه ليصل على أعينهم وعن طريقهم إلى مآربهم وكلنت الحكمة تقتضي لمام ذلك أن يتحرك من يمثل الأمة حق التمثيل للحيلولة بين المحتلين ، وبين ما يهدفون إليه بانفرادهم بهؤلاء كممثلين للأمة وهم في الواقع لا يمثلون إلا أنفسهم .

وكان الوعي بهذه الحقيقة قد جعل أعضاء الحركة الباديسية يرون أنه ليس من المنطق الوقوف موقف المتفرج لمام ما تضطرب به الأحواء السيلسية من غيوم محملة بالمجهول ، كما أنه ليس من الطبيعي أن يتم التحاور في شؤون الأمة بين المحتل وبين النخبة و هم أقلية ، في غياب أعضاء جمعية العلماء، و هم يمثلون الأغلبية [46] ، كملكان هؤلاء؛ أي أعضاء الجمعية، يشعرون أن ضخامة الولحب وعظمة المسؤولية التاريخية ، وحسن التعلمل مع الأحداث ، إن هذا كله يفرض عليهم الدخول إلى هذا المعترك ذودا عن المصلحة العليا للأمة [47] .

كلنت هذه القناعة من لبرز العولمل لتي دفعت بالشيخ لبن باديس إلى المشاركة في هذا المؤتمر تحسيسا للأمة لما يحاك ضد شخصيتها من مكائد

وحرصا على جمع كلمتها وتوحيدا لقولها الفاعلة في الساحة السياسية ، مواجهة مؤامرة الاندماج والمحافظة على الذاتية بموقف واحد و رأي وسعيا للحوار لا لمجرد الحوار [48] وإنما من أجل كسر ما اصطنعه (الأنانيون) بمساعدة حكام الولاية العامة من حواجز للحيلولة بين الجزائر ، وبين إيصال صوتها – مطالبة بحقوقها – إلى السلطات العليا في باريس[49] ، و قد سبق أن نادى ابن باديس بتكسير هذه الموانع منذ وقت مبكر في تعليقه على خطاب وزير الفرنسي سنة 1926 [50] وها هو ذا يعود ثانية ليؤكد على ذلك بعد عشر سنوات« إننا لا ننزال ـــ رغم للقرن ـــ مجهولين عند الأمة الفرنسية ، مقاصدنا الشريفة السلمية المتركزة على روح الحق و الإخاء و الإخلاص ، أن تعرفنا وجها لوجه وتفهمنا فهما يقطع لسان كل أفاك أثيم » [51] ، و إن ابن باديس بمشاركته في هذا المؤتمر ودخوله بقوة معترك السياسة عبر منبره لم يتخل بذلك عن منهجه الإصلاحي . و إنما رأى أن المصلحة العليا للأمة كما ذهب إلى ذلك بعض الدارسين تقتضي في هذه المرحلة أن يزاوج بين هذا المنهج و بين السياسي في وقت واحد [52] وكانت مشاركته هذه مساهمة ظرفية ، و إضافة ضرورية اقتضاها الصالح العام ، ولم تكن من شأنها أن تعرقله في عملية مواصلة جهاده في بقية أهداف مشروعه الأخرى : الدينية و الاجتماعية وغيرها التي أوقف حياته عليها ، و ما استطاع أن يشغله عن النهوض بها غيرها [53] .

وفي الواقع فإن انشغال ابن باديس بالعمل السياسي يرجع إلى وقت بعيد يمكن تحديده

– كما سبقت الإشارة – ببداية مرحلة دخوله معترك الحياة العملية في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، ولكنه لم يكن يريد الإشهار بذلك، كما لم يكن

لذلك كليته التامة لأنه كان يؤمن ، أنه لاشيء أجدى على حركته من الخطة الدينية الروحية الفكرية، و أن العمل السياسي بمفهومه الشكلي (كرلسي و نيلبات و مكلسب وامتيازات) إثمه أكبر من نفعه [54] ، وقد يجر على و هي في بداية عهدها بعض المخاطر و لهذا كان يركز في هذا المضمار على يخدم مصلحة الأمة ، بالتأكيد على مطالبها في الدين واللغة ، وعلى حقوقها العادلة و الحرية [55] ، وسيتحرك بقدر واضح من الحذر والحيطة ، و فيه غير قليل من الحكمة و الوعي بالظروف المحيطة به ، و لما أحس أنه ـــ بعض للتمكن ـــ لمشروعه على أرضية الواقع ، وفي سلوك للناس وعقليا ، و اطمأن على مسير حركته بعض الاطمئنان ، شرع في تطوير نشاطه السياسي تدريجيا إلى أن توج ذلك بمشاركته في المؤتمر والصدع من على منبره برأيه في المسألة الوطنية ، هذا الرأي الذي لم يستطع أن يبوح به قبل أن يحين آوانه .

وقد برهن لبن باديس بمساهمته هذه ، في هذا المؤتمر ، وحسن توجيهه لأشغاله عما يتميز به من حنكة سياسية ، وبعد نظر ، و وعي عميق بملابسات الواقع ، ومجريات الأحداث من حوله .

و ماذا يمكن أن يتصور المرء المسار الذي سيؤول إليه المؤتمر لو لم يول ابن باديس هذه التظاهرة السياسية ما تستحقه من متابعة و مواجهة ، ولم يشارك هو و صحبه في أشغالها ، و وقفوا منها موقف المتفرج ، وهم يمثلون أغلبية الأمة و تركوا ذلك للنخبة و الشيوعيين و هم أقلية في المجتمع ؟ ترى ماذا عسى أن يترتب من نتائج لو سلك ابن باديس وصحبه هذا المسلك ؟

لاشك أن المجال في هذه الحال سيخلو للاحتلال فينفرد بالمشاركين في المؤتمر ، فيصل على أعينهم و بمباركتهم إلى ما يشاء من أهدافه ، و يبلغ بذلك من دون كبير جهد إلى مراده ، فتهدر الحقوق ، و تضيع الهوية ، و تكون هذه النهلية ، شهادة على أن الجزائريين تنازلوا في مجتمع عام لفرنسا على شخصيتهم و حقوقهم ، و يسجل للتاريخ بذلك أن الجزائر ، إنهي إلا كما صورها المحتلون و ضحاياهم بشعاراتهم المعروفة المتنكرة لأصالة الجزائر : ملة ، و أرومة و حضارة .

و هل يحسن بمن ظل طوال حياته جنديا يذود عن الأمة : وجودا و هوية ، أن يسمح لأعدائها بأن يصلوا إلى ما لم يستطيعوا أن يصلوا إليه طوال أيام احتلالهم البلاد ؟ و هل من الحكمة و سداد للرأي أن يلتزم الصمت و الحياد في مثل هذه الظروف من عرف بالمجاهرة بالحق ، و مدافعة البلطل في جميع مواقفه ؟ و كيف يفعل ذلك من اتخذ الإسلام وهو دين الحق و التغيير و الثورة مهيعا له في جميع مراحل حياته ؟

و لعله أصبح من الواضح بعد ، أن هذه المشاركة في المؤتمر قد كانت ضرورية ، لا رغبة في الاحتراف بالسيلسة الشكلية ، و إنما كان ذلك على غيرة عن المصالح العليا للأمة .

2 ــ المطالب :

يحسن التساؤل بداية عن أهم المطالب العامة التي تقدم بها المشاركون في المؤتمر و جرى النقاش حولها في جلساته ؟ و هل كانت واحدة أو متنوعة ؟ و ما هي مطالب جمعية العلماء بخاصة ؟

يمكن الإشارة بادئ ذي بدء إلى أن المطالب الوطنية كانت متفرقة قبل المؤتمر وكان يتقدم بها إلى السلطة أفراد لا تجمعهم حركة منظمة و كانت هذه المطالب تقابل دائما بالرفض طوال حكم اليمين بفرنسا و لما جاء حكم اليسار في باريس رافعا شعار المساواة والديمقراطية ، متظاهرا بإجراء بعض الإجراءات بالجزائر، توجهت الأمة في مؤتمرها بمطالب علمة مشتركة، سياسية و اجتماعية و اقتصادية و غيرها [56] .

و يحسن التفريق بين المطالبة ببعض الحقوق العامة (مطالب النخبة) التي يمكن إجمالها في المطالبة بالمساواة في الانتخاب والتمثيل، ورفع جميع الأوضاع الخاصة والأحكام الجائرة[57]. وبين مطالب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي تؤكد إلى جانب تلك المطالب السابقة على ما يلي

1 . اعتبار العربية لغة رسمية .

2 . فصل الدين عن الدولة (تسليم المساجد للمسلمين) .

3 . تأسيس كلية دينية لتعليم الدين الإسلامي و لسانه العربي .

4 . استقلال القضاء . [58]

و قد دخلت الحركة الباديسية هذا المؤتمر لا رغبة في السيلسة الشكلية و إنما ذودا عن هذه المطالب ولأجل ذلك دعا ابن باديس الأمة إلى الالتفاف هذه المطالب و التمسك بها ، و رفض كل بديل عنها « و إنما وقفت الجمعية في مؤتمر الأمة تضع مطالب للدين و اللغة و شروط المحلفظة على و الشخصية و مثلت ذلك كله بلسانها و هيئتها أصدق تمثيل » [59] وقد

أدرك دعاة الاندماج حينئذ أن هذه المطالب الباديسية ستفسد عليهم خطتهم و يبقون وحدهم في الميدان. (60)

وإذا كان الباحث قد لاحظ –وهو يتصفح آثار الإمام ابن باديس وينعم النظر في مواقفه – أن نضاله قد تركز في بداية حركته على التمكين للمقومات الشخصية والمنافحة عنها والمطالبة بالمساواة بين الشعب الجزائري وبين غيره في الحقوق الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . ونحسب أن الذي يقيم ذلك بعين الموضوعية والإنصاف يعتبر هذا التوجه من ابن باديس في تلك الفترة المبكرة من جهاده وعيا سياسيا سديدا من الإمام وتقديرا حكيما للظروف الموضوعية وتقويما رشدا للتحديات و الملابسات التي تكتنف الحياة الوطنية و الإمكانات الذاتية المحدودة ، فالشيخ في بداية طريقه وملتزال أفكاره لم في وسط الأمة بالقدر الذي يجعلها تعي أبعاد حركته ، فتقف إلى جانبه و تعضده و تحميه ، بينما يقف المحتل في الضفة المقابلة بالمرصاد لأي يريد أن يوقظ النائمين و يمسح عن جفونهم عتمة الليل البهيم ، و يحدو على طريق الفجر الجديد، فكان هذا الوعي بهذه الظروف يقتضي من ابن باديس،و من كل زعيم سياسي حكيم أن يراعي هذه الملابسات ، فنهج الشيخ لذلك في جهاده السياسي نهجا قويما لم يعمد فيه إلى مخاطبة المحتلين ابتداء ، ينطلق فيه من التعليق على خطب وتصريحات الحكام المتعلقة بشؤون و الجزائريين مستخدما في ذلك أسلوبا مرنا يقوم على الاحتكام إلى المنطق وإلى حقائق التاريخ و أحداث الواقع ، فيعقب على آرائهم موازنا بين ما يدعيه أصحابها من مبادئ وما يرفعونه من شعارات وبين ما يعاني منه الشعب الجزائري على أيديهم من مظالم ومناكر ، فهم يزعمون أنهم إنسانيون أصحاب حضارة يعطفون

على الشعوب المستضعفة ويدافعون عن حقوقها و يعملون على ترقيتها، وهل الشعب الجزائري من هؤلاء للغزاة شيئا غير استعادة حقوقه المغتصبة وحريته المهدورة ؟

إنه لا يطلب من هؤلاء الذين احتلوا أرضه ، و انتهكوا حريته ، و استباحوا حرماته ، و سلبوا خيراته و تركوه نهبا بين مخالب الجهل والفقر والحرمان ، إلا أن يكفوا عنه مظالمهم ويعطوه حقوقه ،و يعاملوه بميزان ما يرفعون من شعارات ، و ما يزعمون من مبادئ « إن الأمة الجزائرية قامت بواجبها في أيام عسرها ويسرها ، ومع الأسف لم نر الجزائر نالت على ذلك ما يصلح أن يكون جزاءها ، فنحن ندعو فرنسا إلى ما تقتضيه مبادؤها الثلاثة التاريخية (الحرية و المساواة و الأخوة »[61] وقد .كان ابن باديس بهذا المنهج يهدف في حقيقة الأمر إلى غاية واحدة – كما ينص على ذلك بعض الدارسين – هي تحرير الوطن من نير الاحتلال الأجنبي [62] .

وذلك عن طريق المنافحة عن مقومات الاستقلال الشخصي كمقدمة على طريق الاستقلال السياسي .

وإن الذي يعود إلى آثار الإمام يمكنه أن يتأكد من هذه الحقيقة من خلال كثير من مواقفه وغير قليل من أعماله التي كان قد تغنى فيها بالحرية منذ وقت مبكر (1925) ، كما أبرز أهميتها في حياة الإنسان وغيره من الأحياء ،ولنستمع إلى الإمام وهو يبسط موضوع الحرية ويوضح حاجة الإنسان إليها بهذه الموازنة ما بين حاجة الإنسان وحاجة النبات إليها ، أن النبات لا ينمو « و يزهو إلا إذا كان في نطاق واسع من الفضاء و

و المنبت يجد فيه الحرية للنمو و الازدهار، و بقدر ما يضيق نطاقه يكون يصيبه من لليبس وللذبول ، هكذا الإنسان ، تنمو مداركه ، و تتجمد ، و تقوى إرادته و تضعف ، وتحسن أعماله وتقبح ، بقدر ما يكون له من الحرية الصحيحة في الحياة ، فلهذا كان الإنسان ـــ شعبا وفردا ـــ للحرية بطبعه لأنها شرط كماله » (63) .

ويعود إلى الحديث عن الحرية بعد أقل من سنة من تاريخ نشر مقاله السابق ، وذلك في الرابع عشر من شهر جويلية 1926 ،يوم ذكرى للثورة الفرنسية 1789 . فيعمد إلى تذكير المحتليين بهذه المناسبة وهم يحتفلون بعيد حريتهم ـــ ما عليهم من حقوق غيرهم في هذا المطلب الإنساني ـ فإذا كانوا هم يحتفلون في هذا اليوم رمز الحرية عندهم ، فإن سواهم ما يزال يرسف في أغلال العبودية على أيديهم ، مهضومة حقوقه بقوانينهم الظالمة ، منتهكة حريته بسلطانهم الجائر ، محروما من أبسط حقوقه في الحياة الحرة الكريمة .

وكان على البلحث أن ينتظر زهاء عشر سنوات حتى يلتقي بابن باديس مع وقفة أخرى عند موضوع الحرية وكان ذلك في خطابه الذي ألقاه في أعقاب المؤتمر الإسلامي (أوت 1936) وقد أعرب فيه ـــ بما يفسر أهدافه من هذا المؤتمر ـــ عن حب الشعب الجزائري للحرية ، وتعلق قلوب أبنائه بها ، و استعدادهم للتضحية من أجلها ، حاضرا ومستقبلا « أيها الشعب إنك بعملك العظيم الشريف (المساهمة في المؤتمر)برهنت على أنك شعب متعشق للحرية هائما(كذا) بها، تلك الحرية التي ما فلقت قلوبنا منذ كنا نحن الحاملين للوائها ، وسنعرف في المستقبل كيف نعمل لها ، وكيف نحيا ونموت لأجلها » (64)

وتعود على الإمام ذكرى هذا اليوم من سنة 1939 ، فيعود إلى التذكير بما وقف عندمن قبل ،من حقوق الشعب الجزائري في الحرية ،هذه الحرية التي ظل قلبه إلى هذه الأيام الأخيرة من حياته يفيض هياما بها وشوقا إليها : « آه ، آه أيتها الحرية المحبوبة ، ولشوقاه إليك بل ولشوقاه إليهم ، المحيا محياهم ، و الممات مماتهم ، أنقذ اللهم بهم عبادك وأحي بلادك ، و ألحقنا اللهم بهم غير مبدلين ولا مغيرين آمين » [65].

وقد يقول قائل إن ابن باديس طالب بالحريات العامة وتحدث عنها حديثا عاما . فهل تحدث عن الاستقلال بمعناه السياسي المعروف ؟

لقد وقف الإمام عبد الحميد عند معنى الاستقلال السيلسي وألح تكرار هذه الكلمة ولشتقاقاتها عشرمرات في بضعة أسطر في مقاله (حول كلمتنا الصريحة) ومما جاء فيه من ذلك قوله « إن الاستقلال حق طبيعي لأمة من لأمم للدنيا وقد استقلت لأمم كانت دوننا في القوة والعلم والمنعة والحضارة » [66] ، مؤكدا خلال ذلك على إمكانية استقلال الجزائر و إنها صائرة بإذن الله إليه ، و أن حالتها الحاضرة ليست بدائمة ثم يعود بعد حوالي سنة إلى الحديث عن استقلال الجزائر بأكثر دقة وأكثر تحديدا ، وذلك معرض التعبير عن تأييده و احترامه لمن وقف من زعماء الجزائر (أعضاء حزب الشعب الجزائري) يومئذ موقفا معارضا من مشروع (فيوليت) متمنيا أن يبقى هؤلاء الزعماء الوطنيون ثابتين على مواقفهم ، مصرين على مطالبهم في الاستقلال يؤكد الإمام على هذه الحقيقة فيقول : « ونحن نحترم رأي هذه الأقلية ، ونِمن بقاءها على رأيها وهي تطالب بالاستقلال، وأي إنسان يا سادة

لا يحب الاستقلال ؟ إن للبهيمة تحن إلى الاستقلال للذي هو لأمر طبيعي وضعية الأمم » [67] .

وبهذا الإيمان الكبير بوعد الله بالنصر لعباده المؤمنين ، وبهذا الحوار الواضح الصريح سؤالا و جوابا يؤكد الإمام من أن استقلال الوطن آت – بإذن الله – ، وبإيمانه العميق بحق وطنه في هذا المطلب ، قضى حياته مجاهدا في عدة جبهات ، ولكنها سنة الله في كونه ، إذ لكل حدث آولنه ، ولكل أجل كتاب وما على الإنسان المؤمن إلى أن يتوكل على الله ثم يتخذ الأسباب ويسير في الطريق الصحيح وفق السنن في الطريق إلى غاياته وإن الله لناصره وهو متمم وعده وناصر عبده .

يؤكد الشاعر محمد العيد آل خليفة هذه الحقيقة في معرض إشادته بجهود الأعلام المصلحين في بعث النهضة التي كانت المهاد لثورة نوفمبر العظيمة [68] فقد غرس أولئك الأعلام المجاهدون للبذور الأولى لهذه الثورة في النفوس وفي العقول وفي السلوك . وخلف من بعدهم خلف اقتفى الأثر وسار على الدرب وفجر الثورة وحاد بالتضحيات وضرب أروع الأمثلة في البطولات وحقق النصر ، ومضى يشيد على أرض الجزائر الحرة الدولة الجزائرية الحرة المستقلة ، يشير محمد العيد إلى بعض ذلك فيقول :

سلام على الأعلام ما طاب ذكرهم وآثارهم في العلم والعلم يخلد
لقد زرعوا زرعا فأخرج شطأه كأخصب محصول لمن هب يحصد
وأبقوه للأجيال ذخرا مباركا وزادا من الذكرى لمن يتزود
وأقبل جيل بعده غرس ثورة عصامية يرجو النمو وينشد
ويبني على أرض الجزائر لأمة مثلية في وعيها ويشيد [69]

وبعد فيمكن أن يكون قد أصبح من الواضح – أمام هذه الحقائق – ، تهافت مزاعم من يدعي أن ابن باديس كان يساير بمشاركته في المؤتمر فكرة الاندماج ،كيف يصدق عاقل أن يصدر ذلك ممن جمع الشعب بعد عودته من رحلة المؤتمر إلى باريس و خطب فيه ، داعيا إياه إلى التبصر و الثبات في مواقفه ، تمسكا بشخصيته ، و ذودا عن حقوقه ،مذكرا إياه بما عرف عنه من تعشقه للحرية ، ملمحا إلى استعداده بإعلان الثورة من أجلها [70]

3– النتائج : لقد أسفرت مداولات المؤتمر على جملة من النتائج أهمها :

1. بلورة الفكرة الوطنية و تطور العمل السياسي .

2 . اتحاد جميع العناصر المشتركة في المؤتمر على مبدأ المحافظة على الشخصية هكذا وقع إقرار الأمة في مؤتمرها العام على مطلب عام واحد و هو « المحافظة التلمة على المميزات الشخصية و المطللبة بجميع الحقوق السيلسية » [71] و يعني هذا بعبارة أخرى « إعطاء الأمة الجزائرية جميع الحقوق مع محافظتها على جميع مقوماتها [72] و قد انبثق عن أشغال المؤتمر وفد يرأسه محمد الصالح بن جلول و شارك فيه من العلماء ابن باديس و العقبي و الإبراهيمي .

حمل الوفد هذه المطالب إلى باريس ، و تحاور مع السلطة الفرنسية هناك ، و لأبدى رأيه في المسألة الوطنية و حاول أن يسمع للرأي الآخر ، و مكث هناك ثمانية أيام قضاها كلها في المساعي و الاتصالات مع مختلف السلطات و مختلف التيارات السيلسية ،فنهض الوفد بمطللب الأمة « بصدق و أمانة و شرف » [73] .

وكان رد فعل السلطات الفرنسية بزعامة الجبهة الشعبية بأحزابها الثلاثة الكبرى : الاشتراكيون الشيوعيون ، و الراديكاليون حول المطالب الوطنية يختلف من جهة إلى أخرى .

فأما الاشتراكيون و الشيوعيون فقد أبدوا بعض التفهم و بعض الموافقة على مطالب المؤتمر عامة ، و أما الراديكاليون فقد ظهر منهم تريث و احتراز على بعض المطالب، و معارضة شديدة على بعضها الآخر (74) وقد صارح (دالادي الراديكالي) وزير الحربية الفرنسية يومئذ أعضاء الوفد الجزائري بعدم موافقته على إعطاء الجزائريين النيابة البرلمانية ، ماداموا محافظين على أحوالهم الشخصية الإسلامية «إنني أعارض كل المعارضة في إعطائكم النيابة البرلمانية ما دمتم على حالتكم الشخصية الإسلامية » (75) ومما يروى أن (دالادي) قد علق على ابن باديس وهو يتحدث عن المطالب الوطنية بما معناه : يمكنكم أن تحصلوا على مطالبكم حينما تكون لكم مثل هذه وهو يشير إلى المدافع ! المنصوبة في بهو القصر ـــ فأجابه ابن باديس على الفور : إن عندنا ما أعظم من هذه المدافع ! وقد نقل ابن باديس مضمون هذا الحوار ، الذي دار بينه وبين فيما كتب على هامش هذا المؤتمر ،و إنما يروى هذا الحوار ، أكثر من واحد معاصريه (76) ثم يعود الوفد إلى الوطن وليس في حقيبته إلا الوعود ، و إذا كان بعض أعضاء الوفد قد علق كبير أمله على هذه الوعود ، ورأى رئيس نفسه أن المؤتمر غاية و أن مطالبه أقصى المطالب ، و قدم مساعيه إلى الأمة ، على أنها عمل بطولي (77) فإن ابن باديس لم يكن متفائلا إلى هذا القدر ، ولم في المؤتمر و مطالبه ذلك الرأي و إنما قدمه إلى الشعب على أنه ليس أكثر من

خطوة أولى على طريق جهاده، تتلوها خطوات و وثبات ولذلك دعا إلى من العمل و الاستعداد بما يعقبها من صمود وجهاد ، وما يترتب عن ذلك من نصر أو استشهاد ، يخاطب الشعب بهذه الحقائق فيقول : « و اعلم أن عملك على جلالته ما هو إلا خطوة و وثبة ، و وراءه خطوات و وثبات ، و بعدها إما الحياة و إما الممات» (78)

ويدخل الإمام في أعقاب هذه المستجدات مرحلة جديدة من نضاله السياسي ، استهدف من خلالها الرفع من القدرات الجهادية لأمته ، داعيا إياها إلى الاعتماد في ذلك بالدرجة الأولى على العناية الإلهية ،ثم على إمكاناتها الذاتية و على جهود المخلصين من أبنائها ، آخذة العبرة مما انتهت إليه مساعيها المختلفة (79) حريصة على توحيد صفها ، عاملة بتبصر وتثبت على إفشال ما تبثه السلطة من مكائد المكر و الخديعة ضد شخصيتها ، رافضة المساومة عليها بأعراض الدنيا كلها ، وما قيمة دنيا بلا دين « فلعنة الله على الدنيا كلها ، إذا لم يكن فيها دين » (80)

و يحذر الكاتب المحتلين في الوقت ذاته من مغبة الاستمرار في التعامل مع الأمة بأساليبهم البالية متمثلة في سياسة المماطلة والتغاضي عن الحقوق ، و يطول الأمد و يكاد رصيد الصبر أن ينفد ولم يصل إلى الجزائر شيء من تلك الوعود و إنما وصلتها أنباء تفيد أن السلطات الفرنسية قامت بتشكيل لجنة كلفتها بزيارة الجزائر والقيام بدراسة الأوضاع وتقصي الحقائق فيها في أجل أقصاه ثمانية عشر شهرا (81) .

ويرى ابن باديس أمام هذا الباب المسدود الذي انتهت إليه المساعي الوطنية من جراء التسويف و المماطلة أن يدعو إلى عقد مؤتمر ثان للنظر في هذه المستجدات و اتخاذ موقف موحد تجاهها و يؤكد أن هذه التطورات و إن بلغت إلى ما بلغت إليه من تدهور و تنكر ، و مهما نجم عنها من يأس و خيبة ، فإن ذلك لم يكن من شأنه أن يؤدي إلى إحداث الضجر و السأم في النفوس المؤمنة و دفعها من ثم إلى القعود عن العمل و السعي ،كما يتوقع و يتمنى المغرضون ، و إنما سيكون للأمة من ذلك ما يقوي فيها العزم على التغيير من أساليب الجهاد المتمثلة في المطالبة و الانتظار ، ويدفعها من ثم إلى إعلان الثورة على الغاصبين « كلا و الله لا تسلمنا المماطلة إلى الضجر الذي يقعدنا عن العمل و إنما تدفعنا إلى اليأس الذي يدفعنا إلى المغامرة و التضحية » [82] .

و واضح من خلال ما في هذا النص من ملامح التعريض بالعدو ، التلميح بإعلان الثورة ضده غير أن هذا العزم على امتطاء صهوة الجهاد لم يثن ابن باديس في الوقت ذاته من الاستمرار في طرقه أبواب السلم عسى أن يلقى ذلك آذانا صاغية لدى المحتلين فيستجيبوا لنداءات المظلومين قبل أن يفوت الأوان ، و تحين ساعة الخطر ، و تنفجر « تلك الصخور بما تحتها من براكين لا يدري إلا الله يوم انفجارها وطالما انفجرت في أطوار التاريخ فانتقم الله بها ممن شاء ،تلك سنة الله ، و لن تجد لسنة الله تبديلا » [83]

و تشهد هذه المرحلة تطورا ملحوظا في المنهج السياسي لابن باديس، و نضجا واضحا في نظرته إلى الواقع ، و تحليلا واعيا لما يجري في ساحته من تطورات ، مما دفعه إلى تغيير بارز في أسلوب تعامله مع الأحداث .

و يتوجه الإمام إلى الأمة و إلى نوابها لمجموعة من التوجيهات ركز فيها على توحيد الصفوف و شحذ الهمم ، وتنوير الأذهان ، و الإصرار على التضحية من أجلها ، داعيا النواب إلى مقاطعة المجالس النيابية وعدم الرجوع إليها لم يتم التصريح بالمحافظة على الشخصية [84] ويستجيب كثير من للنواب لنداء للزعيم فيقدموا استقالتهم في مختلف المجالس النيابية [85]

و تستجيب الأمة لتوجهات قائدها فتمضي بعزم وثقة في إعلاء أسس بناء الحاضر بوضع اللبنة على اللبنة في بناء مستقبلها ، و يمضي ابن باديس في التمكين لأسس مشروعه بمنهج لا يطغى فيه العمل السياسي على غيره ، و إنما يزاوج فيه بين هذه الناحية وبين غيرها ، يزاوج فيه بين للدين وبين العلم بين السياسة و الاجتماع ، بين الإسهام النظري و الجهاد العملي ، ناظرا بعين إلى الحاضر، مندمجا في قضاياه لايثني عزمه عن الإسهام فيه ما يضطرب به من عواصف وأعاصير ، وينظر بالعين الأخرى إلى المستقبل ، متفائلا بما سيحمل بين جوانحه للأحيال من ثمار يانعة وقطوف دانية على طريق السيادة والعزة و الأصالة ، فاليوم تبني « هذه النحلة العاملة للتي تسمى الأمة الجزائرية المسلمة العربية خليتها ، وغدا سيجني أبناء المستقبل عسلها السائغ » [86]

و يمضي ابن باديس في هذا الدرب بهذا اليقين فيسلمه ذلك إلى هذه الحقيقة التي ما فتئ يؤمن بها وزاد إيمانه بها قوة بمرور الأيام ، بأنه لا مناص للوصول إلى الأهداف الوطنية العليا من إعلان الجهاد على المحتلين وليس أجدى على الأمة و أنجع في افتكاك حريتها و لاسترجاع سيادتها من ركوب متن الثورة ، وقد فكر الإمام في الإقدام على ذلك فعلا –والحرب العالمية

على الأبواب- كما يذكر بعض معاصريه [87] بيد أن داعي الحق إلى الحق فلبى للنداء، و انتقل إلى جوار ربه –رحمه الله- وقلبه يخفق بالثورة وعقله لها .

و تواصل الأمة جهادها على نهج قائدها الفقيد ، ويصمم الخلف على استكمال المسيرة على درب السلف ، فيتعهد تلك البذور بحسن الرعاية فيخرج الزرع شطأه ويستوي على سوقه ، ويفجر الشعب ثورته المباركة ، فينجلي الليل ، و تشرق الشمس ، و يكون الصباح [88].

وإن المتأمل في هذه الجوانب من الجهاد السياسي لابن باديس يلمس أنه عرف نضجا ملحوظا ومر أثناء ذلك بمراحل عديدة ، فماذا عن ذلك ؟

سابعا: نضج وتطور : ومما يمكن ملاحظته عن العمل السيلسي للكلتب أنه مر بمراحل ثلاث تميز في كل منها موضوعا وأسلوبا بطوابع خاصة أملتها الظروف التي اكتنفت المسألة الوطنية من فترة إلى أخرى :

1ـ فقد كان في المرحلة الأولى يكاد يتحرك في الميدان بمفرده ولم يكن في حركة منظمة ، كما أن للوعي السيلسي لم يكن منتشرا في أوساط الأمة بالقدر الذي يمكنها من إدراك أبعاد مشروعه في هذا المجال وكانت النهاية آلت إليها جهود (الأمير خالد) نصب عينيه فكان عليه لهذه العوامل أن يراعي جميع الملابسات ، فلم يجرأ لذلك في هذه الفترة على مصادمة بخطابه السيلسي الصريح محافظة على حركته وهي في بداية الطريق من الانتقام ، وإنما كان ينطلق فيه ، و بأسلوب يتميز بغير قليل من اللين و و الاعتدال من خطب الحكام وتصريحاتهم ، معلقا عليها ،مذكرا أصحابها بما

يرفعونه من شعارات وبما يزعمونه من مبادئ ، مطالباً إياهم بإنجاز ما ترمز إليه وتلك ، من تمكين المستضعفين من حقوقهم .

وكان أقصى ما رمت إليه هذه المطالب يومئذ رفع الغبن عن الشعب الجزائري والتخفيف عليه من حدة ما يعانيه من آثار الإجراءات التعسفية التي تشد بعنف على عنقه ، والمطالبة بمساواته في مجالات الحياة المختلفة بغيره ، ومنحه ما يستحقه من الحقوق السياسية والاجتماعية والاقتصادية كفاءاً لما قام به من واجبات فتميزت هذه المرحلة على وجه الخصوص بهذه السمات :

أ ـ حرص الكاتب على الربط في منهجه السياسي بين المقومات الشخصية والحقوق الوطنية. (89)

ب ـ انطلاقه في خطابه السياسي من تصريحات الحكام ، يذكرهم بمزاعمه الديمقراطية ودعاويهم السياسية ليأمن من مكرهم ، و يقيم الحجة عليهم في وقت واحد . وليس هذا من قبيل المداهنة أو المواربة ، وإنما هو أسلوب حكيم ، يجعل المخاطب به يختار بين أمرين اثنين : إما أن يصدق مزاعمه ويسلم بما ترمز إليه من قبول للرأي الآخر والكف عن إذلية أصحابه و الإسراع في إنجاز ما يطالبون به من حقوق ، وإما أن يكذبها فيجرد نفسه من أعز ما يتبجح به ، وفي هذا الأسلوب ما فيه من واضح الدلالة على حنكة صاحبه و حكمته ، و هو و إن لم يصل بذلك إلى أي شيء مما يرمي إليه من الحقوق فإنه سيأمن ـ لاعتداله و مرونته ـ بعض الأمان على نفسه من شر المعتدين .

ج ـ وقد زاد في إبراز صورة هذا المنهج و تأكيده ما تميزت به أدوات التعبير في هذه المرحلة من ميل إلى القصد ، و المرونة ، و الاعتدال .

2ـ أما المرحلة الثانية فيمكن تحديدها ببدلية الثلاثينيات ،وتتميز في تاريخ الجزائر بلشتداد الحملة التغريبية على الهوية الحضارية للشعب الجزائري بظهور مشروع (فيولييت) ومؤامرة الاندماج كما شهدت في الوقت ذاته ميلاد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، فأصبح الإمام يتحرك في إطار منظم يقف إلى جلنبه كوكبة من الأعلام يعضدونه و يؤازرونه ، وتلتف من حوله بوادر استجابة منبعثة من صفوف الأمة تبارك حركته ، مما جعله يضاعف من جهاده ذوداعن الشخصية والوقوف بشدة في وجه المحاولات الرلمية إلى إجهاض الحركة الوطنية والانحراف بها عن الأهداف الحقيقية عن طريق المناداة ببعض الحقوق مقلبل التنازل عن الشخصية . واقتضى منه ذلك أن يطور خطابه السيلسي موضوعا وأسلوبا، بما يتملشى والمستجدات على الساحة السياسية ، فانتقل فيه من التلميح بالمساواة في بعض الحقوق ، إلى التصريح بالمساواة في كل الحقوق ولم يعد ينطلق فيه من خطب سيلسية ، وإنما يبتدئه ابتداءا من مواقف ميدانية ثابتة .

و كان أهم ما ميز هذه المرحلة هذه الملامح :

أـ التصدي صراحة إلى السيلسة الاستدمارية بإفشال مخططلتها ضد المميزات الذاتية للشعب الجزائري .

ب ــ مقاومة (مشروع فيوليت) و إحباط ما يرمي إليه من التغريب و الاندماج .

3ــ أما المرحلة الثالثة فقد تزلمنت مع انعقاد المؤتمر الإسلامي للذي شهد تقديم جملة من المطللب على منبره للسلطات الحاكمة في باريس وانتهاء إلى لاشيء فخرج لبن باديس من هذه التظاهرة وما أعقبها من مناورات بتجربة سياسية ثمينة عمقت خبرته بلأساليب السيلسية الاستدمارية وما تقوم

عليه من مكر وخداع وتعصب ،فانعكس ذلك على منهجه السياسي فعرف بعض التطور ، لستبدل فيه الأسلوب الصريح بأسلوب التلميح ، ومنهج بخطة المطالبة، ، و انتهى به ذلك إلى شيء من اليأس ، إلا أن ذلك لم يدفعه القعود عن العمل ، و إنما زاد في شحنة يقينه بما خلص إليه ،بأن لاشيء الأمة في بلوغ مراميها العليا غير المجابهة الميدانية للمحتليين بإعلان الجهاد و الاعتماد في ذلك على العناية الإلهية ، ثم على الإمكانات الذاتية .

و مضى على هذا الدرب يتوعد المحتل و يحذرمن مغبة صلفه وتعنته ، و يحث الشعب من جهة أخرى على إعداد العدة وتعبئة الطاقات لإعلان الثورة ، فانتقل إلى جوار ربه (رحمه الله) و قد ترك الشعب و قد اطمأن لفكرته وتبنى خطته ، ولم يلبث الا قليلاحتى فجر بركان ثورته الخللدةمن جبلله المنيعة وتوج جهاده بافتكاك حريته عنوةمن أيدي المحتلين ،وكان من أهمما ميز عمل الإمام في هذه المرحلة :

أ- انتقاله في خطابه السيلسي من الأساليب العتيقة إلى أساليب أكثر فاعليةفي بلوغ المقاصد

ب- الاستمرارفي ترك باب الحوار مفتوحا وفتح باب جديدإلى جلنبه تمر منه الأمة بعد حين إلى أهدافها في التحرير والرقي .

ج – التعريض بمصير الظالمين و تشديد اللهجة في مخاطبتهم والتلويج بالثورة عليهم .

و مما يمكن أن نخلص إليه ختاما لهذه الفقرة أن القضية الأساسية التي كانت تشغل بال الإمام و تدفعه من ثم ليتحرك في هذا الإتجاه أوذاك أو يلأخذ

الموقف أو غيره ، إنما هي قضية واحدة و هي المسألة الوطنية بكل جوانبها السيلسية و الاجتماعية و الاقتصادية وغيرها ،بيد أن هذه النظرة السيلسية الجوانب المختلفة و أسلوب التعامل معها كان يختلف من مرحلة إلى أخرى فكانت تطفو على سطح الاهتمام في مرحلة بعض الجزئيات وفي مرحلة تتعلق العناية بغيرها ، مما طبع أسلوبه في المرحلة الأولى بشيء من المرونة والتلميح ، وتطور في المرحلة الثانية فتلون بشيء من المجابهة والتصريح . في المرحلة الثالثة إلى المجاهرة بالموقف الجريء و الرأي الصريح .

ثلثا : الخاتمة : ونخلص في نهاية هذه الدراسة إلى التأكيد على أن الإمام ابن باديس قد استمر على هذه النهج إلى آخر حياته مجاهدا في سبيل نصرة دين الله الإسلام ، و لسانه اللغة العربية منافحا عن الجزائر قيما ومقومات ، حقوقا وتطلعات ، محتسبا ما يلقى في سبيل ذلك من مختلف صنوف الإرهاب والعنت و الابتلاء . وكان من آخر ما يمكن أن يعكس موقفه هذا فيما أعلم الله ذلك العهد للذي أخذه على نفسه أمام صحابته وجمع حلشد من الأمة خلال الكلمة القيمة للتي ألقاها في حفل أقلمته عدة جمعيات تربوية وفنية وكشفية بقسنطينة (أوت 1939) .

لقد عاهد الله في هذه الكلمة ثم عاهد صحبه – و وفى بما عاهد – على أن يقضي ما بقي له من العمر كما قضى ما فات منه على خدمة الإسلام والعربية وللذود عنهما « إنني أعاهدكم على أنني أقضي بياضي على العربية والإسلام ، كما قضيت سوادي عليهما وأنها لواجبات ... وإنني سأقصر على الإسلام والقرآن ولغة الإسلام والقرآن ، هذا عهدي لكم ، وأطلب منكم شيئا واحدا وهو أن تموتوا على الإسلام وللقرآن ولغة الإسلام وللقرآن » [90] وكانت

هذه الصيحة فيما يبدو آخر صيحة لها توج بها سجل مسيرة جهاد طويلة ، ولم يمكث رحمه الله بعد ذلك إلا قليلا حوالي ثمانية أشهر ثم انتقل إلى ربه في السادس عشر من أفريل 1940 ، قرير العين مطمئن القلب ، بما عاهد الله ثم الناس عليه، و بما وفى ، و بما سيلقى – إن شاء الله – عند ربه من واسع المغفرة وجزيل المثوبة و عظيم الأجر ، فبكته الأمة إماما مصلحا ، و عالما عاملا ، و بطلا ، و زعيما مخلصا ، ومن بين من خلد هذا المصاب الجلل في إبانه شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة بهذه المقطوعة (يا قبر) :

يا قبر طبت وطاب فيك عبير	هل أنت بالضيف العزيز خبير ؟
هذا (ابن باديس) الإمام المرتضى	(عبد الحميد) إلى حماك يصير
العالم الفذ الذي لعلومه	صيت بأطراف البلاد
يبكي الجزائر بعد طول سباتها	فالشعب فيها بالحياة
وقضى بها خمسين علما كلها	خير لكل المسلميين
وخضى إليك تخصه بثنائها	إليه من بين الرجال تشير
(عبد الحميد) لعل ذكرك خالد	و لعل نزلك جنة وحرير
و لعل غرسك في القرائح مثمر	و لعل وريك للعقول منير
لا ينقضي حزن عليك مجدد	وأسى له بين الضلوع سعير
نم هادئا فالشعب بعدك راشد	يختط نهجك في الهدى ويسير
لا تخش ضيعة ما تركت لنا سدى	فالوارثون لما تركت كثير
نفحتك من رحمات ربك نفحة	وسقاك غيث من رضاه غزير [91]

الهوامش

1ـ ينظر ابن خلدون : المقدمة 4 : 1361 تحقيق د/ علي عبد الواحد وافي ط2 القاهرة 1964 .

2- ابن باديس حياته وآثاره 1 : 72 ، تقديم د/عمار طالبي ط1 دار اليقظة العربية دمشق 1968 .

3- م . س 4 : 22

4ـ آثار الإمام ابن باديس 5 : 333 وزارة الشؤون الدينية الجزائر دار البعث -قسنطينة- 1982 .

5- ابن باديس حياته وآثاره 3 : 308 .

6- ينظر د / فهمي جدعان : أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث ص 346 . ط 2 بيروت 1981 .

7- ينظر ابن باديس حياته وآثاره 4 : 192 و ينظر حمزة بوكوشة (المعرفة) ع10 (ذوالحجة 1383/ أفريل 1964) ص 17 .

8- سورة آل عمران : الآية 110

9- ينظر السيوطي : صحيح الجامع الصغير برقم 6126 . تحقيق محمد ناصر الدين الألباني ط2 المكتب الإسلامي بيروت 1979 .

10-ينظر الجوهري : الصحاح 3 : 938 مادة (سوس) ط 3 تحقيق أحمد عبد الغفور عطار دار العلم للملايين بيروت 1984.

11- المقدمة 1 : 414

12- ينظر آثار الإمام 5 : 579 .

13- عيون البصائر ص 39 . ط2 الشركة الوطنية الجزائر د – ت

14- ينظر آثار الإمام 6 : 158

15- ينظر آثار الإمام 5 : 286

16- ينظر م . س 6 : 173

17- م . ن 5 : 532 وما بعدها .

18ـ ينظر آثار الإمام 3 : 105

19ـ 20ـ ينظر على التوالي : شارل أندري جوليان : إفريقيا الشمالية تسير ص 133 ، 106 ت : المنجي سليم و آخرون .الدار التونسية للنشر (ش.و.ن.ت) الجزائر 1976 .

21 –د/ أبو القاسم سعد الله، الحركة الجزائرية 3: 18 . معهد البحوث والدرلسات العربية للقاهرة 1975 .

22ـ ينظر آثار الإمام 4 : 199 وينظر 5 : 357

23ـ ينظر ابن باديس حياته وآثاره 3 : 338

24ـ ينظر آثار الإمام 4 : 118

25 – ينظر ابن باديس حياته وآثاره 3 : 337

26ـ ينظر آثار الإمام 5 : 222 ، 223

27ـ د / أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية 3 : 17

28ـ آثار الإمام 5 : 326

29ـ ينظر م . ن : 314

30ـ ينظر م . ن : 380

31ـ م . س 4 : 118

32ـ م . س 5 : 327

33ـ م . س 4 : 118

34ـ آثار الإمام 5 : 329

35ـ د / محمد العربي عدواني ندوة الجاحظية 5 / 02 / 1990 ، فندق الأورلسي – العاصمة –

36ـ ينظر آثار الإمام 5 : 379

37ـ ينظر د / أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية 3 : 17

38ـ فيوليت سبق التعريف به ، أما (بلوم) فهو رئيس الحكومة الفرنسية يومئذ .

39ـ ينظر ابن باديس حياته وآثاره 3 : 370

40ـ آثار الإمام 4 : 118

41ـ انعقد المؤتمر الإسلامي بالجزائر العاصمة في 7 جوان 1936

42ـ آثار الإمام 5 : 380

43ـ ينظر البصائر : السلسلة الثالثة ع : 22 شعبان 1415 / ماي 1985

44ـ ينظر أبو يعلى الزواوي : جماعة المسلمين ص 53 . مطبعة الإرادة الجزائر 1947

45ـ آثار الإمام 5 : 326

46ـ ينظر م . ن : 293

47ـ ينظر تركي رابح. الشيخ عبد الحميد بن باديس فلسفته وجهوده في التعليم ص : 79 (ش.و.ن.ت) الجزائر د– ت

48ـ آثار الإمام 6 : 152

49ـ م . ن : 186

50ـ م . س 5 : 245

51ـ آثار الإمام 5 : 430

52ـ ينظر مالك بن نبي : شروط النهضة ص 26 – 29 . ترجمة عمر كلفل مسقاوي وعبد الصبور شاهين –دار الفكر– بيروت 1969 . و ينظر مذكرات شاهد للقرن (الطفل) ص 228 – 233 ترجمة مروان القنواتي –دار الفكر– بيروت 1969 . و ينظر ابن باديس حياته وآثاره 1 (التقديم)

53ـ آثار الإمام 6 :181

54ـ م . س 5 : 333

55ـ ابن باديس حياته وآثاره 3 : 360

56ـ آثار الإمام 4 : .117

57 –د/ أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية 3 : 283.

58ـ آثار الإمام 5 : 311 ، 313

59– م . ن : 333

60ـ ينظر حمزة بوكوشة المعرفة ع 10 (ذو الحجة 1383 / أفريل 1964) ص 196.

61 – آثار الإمام 5 : 174 .

62–محمد الميلي ابن باديس وعروبة الجزائر ص : 22 . دار الثقافة بيروت .1973

63ـ ينظر آثار الإمام 5 : 182 و ينظر م . س 6 : 216

64ـ آثار الإمام 6 :151 ، 152

65ـ ينظر م . س 6 : 353

66ـ م . س 5 : 305
67ـ آثار الإمام 4 : 118
68 – ينظر الشيخ أحمد حماني : مجلة الثقافة ع 138 أفريل 1977 ص 105 .
69– العيديات المجهولة ص 144 صنعة الكلتب، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية الجزائر – وحدة الرغاية – 2003 .
70ـ آثار الإمام 6 : 151
71ـ 72ـ آثار الإمام 5 : 326ـ 329
73ـ 74ـ م . س 4 : 313ـ 312
75ـ م . س 6 : 167
76ـ ينظر حمزة بوكوشة : المعرفة ع : 10 (ذو الحجة 1383 / أفريل 1964) ص : 19 .
77ـ 78ـ ينظر آثار الإمام 5 : 317
79ـ م . ن 5 : 334
80ـ 81ـ م . س 6 : 190ـ 170
82ـ آثار الإمام 5 : 338
83ـ م . س 6 : 320
84ـ م . ن : 168
85ـ 86ـ م . ن : 157ـ 158
87ـ ينظر حمزة بوكوشة (المعرفة) ع10 (ذو الحجة 1383 / أفريل 1964)ص 21
88ـ ينظر أحمد حماني (الثقافة) ع : 38 (جمادى الأولى 1397 / أفريل 1977) ص : .100
89– ينظر ابن باديس حياته وآثاره 3 : 278 .
90– ينظر آثار الإمام 6 : 366 وما بعدها .
91– ديوانه ص 474 . دار البعث قسنطينة 1967.